المقتطف

الجزء السادس من المجلد الخامس والخمسين

١ دسمبر (كانون الاول) سنة ١٩١٩ — الموافق ٨ ربيع الاول سنة ١٣٣٨

الدكتور اسعد حداد

ما هذا السر الغامض. ترى شاباً في عنفوان شبابه اديباً اريباً لا يؤذي احداً بل ينفع كل احد. وكهلاً امتلأ صدرهُ حكمة وقلبهُ حناناً بلادهُ وقومهُ في اشد الحاجة اليهِ — ذاك الشاب وهذا الكهل يختطفها الموت في لحظة من الزمان ويحرم بلادها من نفعها. والوف ممن لا خير منهم يُرتجى او ممن شأنهم الاضرار بالناس او ممن انهكتهم الامراض وتخر سوس الشيخوخة عظامهم حتى صاروا يطلبون الموت ليل نهار — يعيش كل هؤلاء كأن الموت ينساهم. اي بستاني يُدني بشجرة نخرها السوس او هي كثيرة الاشواك خالية من الثمر فيبقي عليها وينظر الى الشجرة الفتية الزكية الغصة الورق الكثيرة الثمر ويقتلعها ويرمي بها

أصدق زهير ابن ابي سلمى حيث قال

رأيتُ المنايا خبطَ عشواء من تصبْ تمتْهُ ومن تخطئْ يعمَّرْ فيهرمِ

او ان البستاني انما يقلع الشجرة الزكية من بستان قد هوَّاهُ او قلَّ خصب تربتهِ ليغرسها في بستان آخر اطيب هواء واكثر ثراء. هذا ما ينتظر من مدبر الكون الحكيم

***

منذ احدى وخمسين سنة دخل المدرسة الكلية الاميركية شاب طرابلسي منتصب القامة عريض الجبين تلوح عليهِ مخايل النجابة والذكاء والشمم. دخل طالباً علم الطب. اذا كانت ساعات الدرس انقطع الهُ لا يلتفت الى شيء آخر. واذا

كانت اوقات الراحة رأيتهُ مع اخوانهِ التلاميذ يطرفهم بالاحاديث الفكاهية والنكات الادبية ! قضينا معاً سنتين لا نرى منهُ الاَّ الشهامة والترفع عن الدنايا والاكباب على الدرس ومعاملة رفاقهِ بالحسنى . دخلنا المدرسة قبلهُ وخرجنا قبلهُ للعمل عا تعلمناهُ وبعد سنتين اتينا مدينة طرابلس مستقط رأسهِ فرأيناهُ فيها طبيباً كثير العمل رفيع المنزلة يُعتمد عليهِ مثل اكبر الاطباء سناً واوسعهم اختباراً على حداثة سنهِ . ونجاحهُ العلمي والادبي دعا اخويهِ الى طلب العلم في المدرسة الكلية التي تخرج فيها ففازا بالنصيب الاوفر

ولما رأى ان طرابلس صغيرة في جنب همتهِ الكبيرة وآمالهِ الواسعة انتقل منها الى الاسكندرية العاصمة الثانية للديار المصرية وجعلها محط رحالهِ . فاشتغل فيها بالطب علماً وعملاً . واول شيء اتحف المقتطف بهِ لدى انتقالنا الى القطر المصري رسالة عن اكتشاف اجنة البلهرسيا في الرئة نشرناها في مقتطف يوليو سنة ١٨٨٥ قال فيها ما خلاصتهُ انهُ كان يبحث مع الدكتور ماكي والدكتور موريسون عن البلهرسيا في احشاء انسان مات مصاباً بها فوجدوا العدد العديد من اجنة هذا الحيوان في نسيج المثانة والكليتين والكبد ودم الوريد البابي ثم وجدوها في نسيج الرئة . وكتب الينا بعيد ذلك يعزو الفضل في هذا الاكتشاف الى الدكتور ماكي وحدهُ قائلاً انهُ هو الذي بحث السنين الطوال في خواص البلهرسيا وما ينتج عنها من الامراض في الانسان

وكان يتردد على عواصم اوربا ليرى ما جدَّ فيها في علمي الطب والجراحة ويقف على ما اكتشفهُ اساطينها فاتسعت دائرة عملهِ في الاسكندرية حتى كادت تشغلهُ نهاراً وليلاً لاسيما وانهُ لم يكن يكتفي بمشاهدة المريض وفحصهِ وتشخيص دائهِ ووصف الدواء لهُ بل كان يُعنى بتمريضهِ ايضاً فيرشد ذويهِ الى كيفية اعطائهِ الدواء وإعداد الطعام لهُ ويدخل المطبخ ليرى هل آنية الطبخ والطعام مستوفية حقوق النظافة . وقد يذهب الى الصيدلية ويرى تحضير الدواء حاسباً ان عمل الطبيب لا يكفي ما لم يقترن باتقان التمريض او تدبير المريض حتى صار تمريض المرضى من الامور المعروفة في البيوت التي تستدعيهِ لمعالجة مرضاها

ومع اشتغالهِ الكثير المضني للجسم وتحملهِ اكبر مسؤولية لانهُ كان يقول انهُ

مطالب بارواح من يعالجهم واضطراره الى الدرس الكثير لكي يبقى جارياً مع العلوم الطبية في تقدمها السريع كان دائماً بشوشاً طلق الوجه متمتعاً بصحة تامة لاعتداله في كل شيء . ولا ندري كيف كان يجد متسعاً من الوقت للنظر في غير الطب من العلوم الطبيعية والاجتماعية كعلم الاجنة وعلم الحياة وعلم الانسان وعلم الاجتماع وعلم العاديات فانهُ كان يذاكر من يجالسهم من العلماء في هذه العلوم كلها . واذا قدم القاهرة ليقضي فيها يومين قضى اكثرهما في مشاهدة المتحف المصري او تفقد الآثار القبطية او ما اشبه

وكثيراً ما كنا نلومهُ لانهُ لا ينشر نتائج اختباره الطبي في المجلات فيقول اني قلما بحثت بحثاً خاصاً في موضوع لم يبحث فيهِ احد غيري . واخيراً جاءنا ذات يوم منذ سنة ونصف وقال لعلي توفقت الى اكتشاف جديد في علاج السرطان الظاهر . ووصف لنا حادثة سرطان ظاهر عالجها وكاشفنا باسم العقار الذي استعملهُ في علاجها فرأينا ان ما يُلَم من فعلهِ الكيماوي قد يكون مبدأ في علاج الآفات الخلية والمكروبية الظاهرة وطلبنا اليهِ ان يفشي سر هذا العلاج فقال لا لانني لم اجرّبهُ الاَّ في حادثة واحدة فقد يكون علة سببية للشفاء وقد يكون علة معية ولا بدَّ لي من الذهاب الى اوربا وامتحانهِ في مستشفى كبير فيهِ كثيرون من المصابين بهذا الداء ولا يتم لي ذلك الاَّ بعد الحرب . واما اذا اعلنتُ اسم هذا العقار الآن فقد يتناولهُ اناس لا يحسنون استعمالهُ فلا يأتي بفائدة وتنقبض هم غيرهم عن استعمالهِ

ثم ذهبنا الى رمل الاسكندرية وشاهدنا السيدة التي عالجها بهِ ووصفنا حالتها وكل ما رأيناه ووقفنا عليهِ في مقتطف مايو سنة ١٩١٨ . وكان عازماً على الذهاب الى اوربا في الصيف المقبل لامتحان هذا العلاج في مستشفيات السرطان واطلاع الاطباء عليهِ لكن وافاهُ باغتة القدر قبل ان يتم لهُ ذلك ونخشى ان لا يكون قد كتب التفصيل الكافي عن هذا الدواء وكيفية استعمالهِ

ولد الفقيد العزيز في طرابلس الشام من اسرة اشتهر اباؤها وبناتها كلهم بالعلم والفضل وتلقى مبادىء العلوم واللغات في مدارسها والمدرسة الوطنية في بيروت ثم علم الطب في المدرسة الكلية . وكان يحسن الفرنسوية والانكليزية مع لغته

العربية . واخواه الياس افندي حداد والجنرال جبرائيل باشا حداد من متخرجي المدرسة الكلية ايضاً . فجاءهُ القدَر ليلة الثالث من نوفمبر عن سبعة وستين عاماً ولكن الذي كان يراهُ ويشاهد همتهُ واعمالهُ يحسب انهُ في الاربعين من عمرهِ . قضى نهارهُ في اعمالهِ العادية وسهر مع ذويهِ ونام على جاري عادتهِ ولما اصبح الصباح وُجد جثة هامدة . فاضت روحهُ من غير مرض ولا الم كان المرض والالم تهيباه لكثرة ما عاركهما فاغتالاهُ مفاجأة حتى صح فيهِ قول من قال :

اسأت الى النوائب فاستثارت فانت صريع ثار النائبات

فاضت روحهُ من غير ان يسبح لاحد ان يُعنى بتطبيبهِ او تمريضهِ مع انهُ قضى العمر وهو يعنى بتطبيب الناس وتمريضهم . ولقد كان اوجع كلام سمعناه من ذويهِ تحسرهم على مغادرتهِ هذه الديار من غير ان يحملهم اقل مشقة بل من غير ان يخدموهُ في شيء مع انهُ قضى عمرهُ في خدمة غيرهِ

وما ذاع نعيهُ حتى اعترى الناس الوجوم والحزن الشديد على اختلاف اجناسهم وطبقاتهم لانهُ كان الطبيب الغيور والصديق الصدوق

والناس مأتمهم عليهِ واحد في كل دار رنة وزفير

فسكبوا عليهِ العبرات واقبلوا يشاطرون ذويهِ الاسى وساروا في جنازتهِ في اليوم التالي فصلى عليهِ غبطة السيد الجليل بطريرك الروم الارثوذكس وابنهُ ابن شقيقتهِ نسيم افندي صيبعه بكلام يذيب قلب الجماد

فيا خير الاصدقاء ياعشير الصبا ورفيق الشباب والشيخوخة ان كنت قد سبقتنا من هذه الديار فاننا على الاثر

وما الناس الا راحل بعد راحلٍ الى العالم الباقي من العالم الفاني

ونحن لعلى ثقة ان خالق الكون لم ينتقلك من هذه الدنيا الفانية الا ليغرسك في عالم افضل واسعد

ولله لا يدعو الى دارهِ الا من استصلح من ذوي العباد

فطب نفساً وقرَّ عيناً انك نُقلت الى حيث تكشف لك اسرار الحياة واسباب الامراض والاوصاب وتدرك ما عجزت عن ادراكهِ في هذه الحياة الدنيا . سقى الله ضريحك صيب رحمتهِ ورضوانهِ